الغزالى وطريقته

فى تربية الاطفال وتهذيبهم

للاستاذ الفاضل عبد الوهاب أحمد عبد السلام

المدرس بالمدارس الابتدائية

تمهيد : وجد الامام الغزالى فى عصر بلغت العناية فيه بالعلوم الدينية والعلوم اللسانية مبلغاً عظيما ، وانصرفت الهمم إلى تربية الناشئين تربية دينية ، انصرافاً كاد يطغى على كل شىء ، حتى كانت العناية بالعلوم الأخرى كالمنطق ، والفلسفة ، والعلوم الطبيعية ، مقصوداً بها تقوية الناحية الدينية .

ولقد بلغ من آثار تلك العناية ، أن كثيراً من الحكام كانوا يبنون المساجد ، ويحبسون الاوقاف لخدمة الدين الاسلامى ، والعمل على ذيوع مبادئه وأسراره ؛ وبنيت كذلك المدارس ، لأبواء الاطفال الذين يتلقون حدود الشرع ، وأحكام الدين ، على أساتذة مربين ، خصصوا أنفسهم لذلك الغرض ، وهذا (نظام الملك) وزير ملك شاه السلجوقى ، يكاد يجمع مؤرخو الاسلام ، على أنه أول من بنى المدارس فى الاسلام ، فى أواسط القرن الخامس للهجرة للغرض نفسه ؛ وكانت أشهر مدارسه ، المدرسة النظامية التى بناها ببغداد سنة ٤٥٧هـ ورتب فيها العلماء ، لدراسة العلوم الدينية ، والعلوم اللسانية ، التى يقصد بها خدمة القرآن الكريم ، وبيان ما به من أسرار وحكم ، وبلاغة فى التعبير ، وإعجاز فى البيان ، وقد كان من أساتذة تلك المدرسة ، الامام أبو حامد الغزالى ، وفى هذه المدرسة ذاع صيته ، وملأ الناس باسمه ، وأعجب به أهل بغداد ، وصارت له المكانة السامية فى مهنة التدريس

فلا عجب بعد ذلك — إن كنا نرى ذلك الامام الجليل ، فى آرائه التى نعرضها عليك يقصر بحثه على هذه الناحية الدينية ، وقد وضع نظرياته وآراءه ، على ذلك الاساس مقتبساً من تجاربه الشخصية ، ما يضىء الطريق للمربين بعده .

نعم قد تعرض الغزالى لكثير من الآراء الفلسفية ، وجارى فيها أهل عصره ، متفقياً آراءهم ، مقتدا إياها فى كثير من الموضوعات ، ولكن فى حدود ما كان يرمى إليه من تقوية

العقيدة الدينية ، لتكون قائمة على أساس من التفكير الصحيح ، لا يشوبها شيء من التقليد والضعف .

والإمام الغزالي ، أحد قادة التربية في العصر الإسلامي ، الذين لم تزل آراؤهم في الوقت الحاضر ، موضع العناية والتقدير ، من رجال التربية الحديثة ، لذلك نجد أن كثيراً من آرائه في تربية الطفل خاصة ، يتفق مع مبادىء التربية الحديثة ، ومن يرد الموازنة ، فانه يستطيع أن يحكم بتقارب الأفكار ، وتشابه الأغراض ، مما يثبت أن لآرائه في التربية صدى قوياً ، تأثر به رجال العصر الحاضر ، وإن أخذت التربية الحديثة ، أشكالاً وصوراً تبعاً لتطور الحياة ، وتدرج الحضارة

وحجتنا في عرض آراء الغزالي هو (كتاب الأحياء) الذي يسطر به آراءه وطريقته في تهذيب الأطفال ، أسلوب واضح لا تعقيد فيه ولا إبهام .

(٢) الغرض من التربية عنده

يرى الإمام الغزالي ، أن الغرض من التربية ، إنما هو الفضيلة ، والتقرب إلى الله عز وجل ، ولذلك يقول في كتابه : « وعلى المعلم أن ينبه المتعلم إلى أن الغرض من طلب العلم ، هو التقرب إلى الله عز وجل دون الرياسة والمباهاة ، ويقول في موضع آخر : « . . وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المآل التقرب من الله عز وجل »

فهل ترمي التربية الحديثة إلى أكثر من ذلك وهل تريد هذه التربية ، من الناشيء إلا أن يتحلى بحلية الفضيلة ، ويشب على كثير من الصفات الحسنة ؟ وهل يمكن التقرب إلى الله عز وجل بغير هذه الوسيلة ؟ وهي مع ذلك كله ، لا تطلب من الناشيء غير الإخلاص في طلب العلم ، وتلقي الدرس ، بكل انتباه وجد ، دون نظر إلى مباهاة الوظيفة ، أو جاه المال .

لذلك كان من واجب المعلمين أن يلقنوا الناشئين ذلك الغرض ، ويوجهوهم إليه ، حتى يقبلوا على العلم وأنفسهم مطمئنة إليه ، تحدوهم الرغبة فيه ، إلى الزيادة منه ، والاستمرار عليه ، وبذلك نحيا في نفوسهم ، قوة الإراده ، وتسمو لديهم ، مطالب الحياة ، فلا يتعدم يأس ، بعد التفرغ من طلب العلم ، عن القيام بأعباء الحياة ، بل يجدون من قوة إرادتهم وسمو أغراضهم ، ما يدفعهم إلى كسب العيش من طريق شريف ، يحفظ عليهم حياتهم ، وكرامتهم

ولو أن التربية عندنا ، كان مدارها ذلك التوجيه الحسن ، وغرس بذور النخوة والاعتماد على النفس والاستهانة بما دون الشرف والكرامة ، لرأينا نتاجا مزهرا ، تنشط بقوته الأعمال

الحرة . نعم : ولما رأينا ذلك التهافت المزرى على الوظيفة ؛ وما تجر وراءها من امتهان المقول ، وفساد الأخلاق

(٣) رأيه فى تأديب الطفل

يرى الغزالى وجوب العناية بتربية الطفل من مبدأ ولادته ، ومراقبته فى أول نشأته وهو فى هذا يقول : « إن الصبى إذا أهمل فى بدء نشوئه ، خرج — غالبا — ردىء الأخلاق ، كذابا ، حسودا ، سروقا ، نماما . وإنما يحفظ عن ذلك بحسن التأديب »

وذلك لأنه يرى أن الطفل بطبيعته يولد خلوا من كل شىء ، وأنه قابل لكل شكل وصورة ، فإذا عمل إهمال البهائم وترك له الحبل على الغارب ، وجعل فريسة لقرنائه السوء فإنه يخرج ناقص الخلق ، معيباً ، مشوهاً ، تتخطفه الشرور وتتقذف به فى ظلمات الجهالة ، فيكون وبالا على نفسه ، وبالا على أهله ، وبالا على وطنه لذلك كانت المبادرة بمراعاته ومراقبته فى أول نشأته ، من أوجب الواجبات ؛ لتنشئته تنشئة صالحة ؛ ولتحيطه بسياج بينه وبين عوامل الفساد ، التى قد تحيط به وتؤثر فى طباعه .

وليست هذه المراعاة والمراقبة ، مقصورة على المدرسة ، بل لا بد من اشتراك المنزل معها فى التربية إن لم تكن التربية الأولى موجهة إلى المنزل ، لذلك تجد الغزالى يوجه نصائحه وإرشاداته إلى الأبوين ، ثم ينتقل إلى المعلم ، فيزوده بكثير من الوسائل والطرق ، ولذلك كان لابد من تقسيم مراحل التربية إلى قسمين كبيرين . القسم الأول : التربية المنزلية ، القسم الثانى : التربية المدرسية .

التربية المنزلية

والغزالى يرينا بعد ذلك ، كيف تكون صيانة الآباء لأبنائهم ، وهم فى حجورهم قبل أن يعهد بهم إلى معاهد العلم ، ويرسم لنا خطة التربية المنزلية . التى هى عماد التربية الصحيحة ، وأساس الإصلاح وبدونها لا تفلح التعاليم المدرسية مهما كانت

والوسائل التى يراها مؤدية إلى نجاح التربية المنزلية ، هى كما أخلصها لك مؤثرا عباراته فى كثير من الموضوعات

١ — أن لا يستعمل الوالد فى حضانة طفله ، وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، وهو بذلك يشعرنا بالأثر البالغ الذى تتركه المرضعات فى نفوس الأطفال إذ عليها تتوقف حياة الطفل المستقبلة . وهى التى تغذيه بلبانها ، وتخلصه لكثير من طباعها . فليتنبه الآباء إلى ذلك جيدا ، وليكونوا على حذر دائما إذا قضت الضرورة عليهم بالالتجاء إلى المرضعات وليختاروا من بين الصالحة المتدينة ، وفى تلك الإشارة مايغنى عن الإسهاب فى ذلك الموضوع

٢ — إن أول ما يغلب على الطفل من الصفات ، هو الشره إلى الطعام ، فينبغي للوالد أن يؤدبه فيه مبينا ما يجب عمله أثناء الأكل

٣ — ألا يحبب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر ، فيهلك هلاك الأبد

٤ — أن يحفظه من الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية وليس الثياب الفاخرة ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء المخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه . ويكرر ذلك عليه

٥ — «ومهما رأى فيه من مخايل التمييز ، فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ، ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه ، وهو من هذه الناحية ، لا ينبغي أن يهمل ، بل يستعان على تأديبه بحيائه وتميزه

٦ — وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه من الأب وتزجره عن القبائح

٧ — أن يمنع كثرة الكلام ، ويعود حسن الاستماع ، ممن هو أكبر منه ، مهما تكلم

٨ — أن يمنع مخالطة من يجري على لسانه شيء من السب ، والنطق بفحش القول

٩ — وينبغي ألا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصيام في بعض أيام رمضان وثلاث وصايا جديرة بالاعتبار ، في تربية المنزلية ، ومدارها توجيه الناشيء توجيها حسنا ، وإخضاع تصوراته وأعماله ، إلى ناحية الخير ، ومراقبته في كل عمل من أعماله ، حتى يستطيع الحكم في مستقبله ، على بعض أشياء بالقبح أو بالحسن .

التربية المدرسية

أما ذلك التمهيد الحسن ، الذي مهد به الغزالي حياة الطفل ، في نصائحه السابقة ، يمكن ذلك الطفل ، بعد دخوله المدرسة ، من تقدير ما يلقي عليه من النصائح والآداب ، ويوجهه فيه الميل إلى حسن الاستماع من المعلم ، لأن ما زوده به أبوه من الآداب ، وصالح العادات كفيل بخلق هاتين الصفتين فيه وهما : « تقدير النصيحة وحسن الاستماع » ، وفيهما وحدهما كل الضمان لنجاح المعلم في مهمته الملقاة على عاتقه : من أخذ يد الناشيء إلى ما فيه هداية قلبه ، وتثقيف عقله ، وترقية عواطفه ، وترقيق إحساسه ، وصلاح شأنه.

ولننظر بعد ذلك ، إلى الإمام الغزالي ماذا هو فاعل بالناشيء ، وقد خرج من المنزل ، وألقى به أبوه في أحضان المدرسة ؟ أهو محقق ذلك الغرض من التربية الذي ذهب إليه ؟ وما هي الوسائل التي يراها مؤدية إلى تحقيق ذلك الغرض ؟

أما إذا أردت أن تعرف الإجابة عن ذلك ، فاستمع لما يقول الإمام في ذلك موضحا

منهاجه الدراسي .

١ — . . . « ثم يشتغل فى المكتب ، فيتعلم القرآن ، وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ليغرس فى قلبه حب الصالحين ، ويحفظ من الأشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ، فان ذلك يغرس فى قلوب الصبيان بذور الفساد »

٢ — « إذا بلغ الوليد سن التمييز ، وجب على المعلم أن يأخذه بحدود الشرع وأوامر الدين ، ولا ينبغى أن يسامح فى ترك الطهارة ، والصلاة ويؤمر بالصوم فى بعض أيام رمضان »

٣ — « إذا وصل الغلام سن البلوغ ، صح للمربى أن يعلمه أسرار الشريعة والآداب التى أخذ بها من قبل »

أتراه بعد ذلك ، قد بعد عن الغرض من التربية ؟ لا . بل إنه يضع أمام نظرك ، دروسا مائة كفيلة بتخريج ناشئ ، تقى بار . كل همه التقرب إلى الله تعالى . وإليك مجمل هذه الدروس : (١) — تعليم القرآن وتحفيظه . (٢) تاريخ السلف الصالح وذكر أحوالهم (٣) — تلقينه من الشعر ما ليس له اتصال بالخلاعة والفجور (٤) — أخذه بحدود الشرع وأوامر الدين . ومراقبته حين البلوغ وذلك منهج تتحقق به التربية الدينية لا محالة . ويجب أن نسوق تعاليقنا هذه لروح الطبية ، التى تلمحها فى صور هذا المنهج .

ولم يقف الامام عند هذا الحد من التربية ، بل إن شدة حرصه على تتبع الناشئ ، قسط كبير من الحرية فى العمل . وإعطائه فرصة يستجم بها قواه . ويسترد فيها نشاطه ، إن حرصه على ذلك ، قد جعله ينصح المعلم بألا يرهقه فى التعلم . وألا يدخر جهدا فى تنشيط جسمه ، وإراحة عقله . وذلك بالتربية البدنية . وفى ذلك يقول « وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب ، أن يلعب لعبا جميلا . يستريح إليه من تعب التعلم . فان منع الصبى من اللعب ، وإرهاقه بحبث قلبه ، وينغص عليه عيشه ، حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه »

ولا تظن أن ذلك المنهج ، هو كل ما كان يوصى به الغزالى فى تربية الطفل ، أو بالأحرى كل ما كان معمولا به فى عصره ، بل إنه يصور لك ، مدى عناية الأقدمين بالتربية الدينية ويبين لك أن عنايتهم بدروس الدين (وأساسها القرآن) كانت تفوق عنايتهم بالعلوم الأخرى . كحفظ الكتابة ، وتجويد الخط والحساب . وعلم تقويم البلدان . كل ذلك ، كان مما لا يعنى بها أهل ذلك العصر الذى عاش فيه الغزالى . والذى حدا به إلى قصر همته على المراحل السابقة . هو ما ملك من شدة الحرص على القرآن ودروس الدين والعناية بها .